"وسَمِعا صَوتَ الرَّبِّ الإلهِ ماشِياً في الجنَّةِ عندَ هُبوبِ ريحِ النَّهارِ،
فاختبأَ آدمُ وامرأتُهُ مِنْ وجهِ الرَّبِّ الإلهِ في وسَطِ شَجرِ الجنَّةِ. فنادى الرَّبُّ الإلهُ آدمَ وقالَ لهُ:
"أينَ انتَ؟ فقالَ: سَمِعتُ صوتَكَ في الجنَّةِ فخَشِيتُ، لأنّي عُريانٌ فاختبأتُ" (تكوين ٣: ٨-١٠).

اللّه يُريد خلاص الإنسان

■ القسّيس د. إدكار طرابلسي

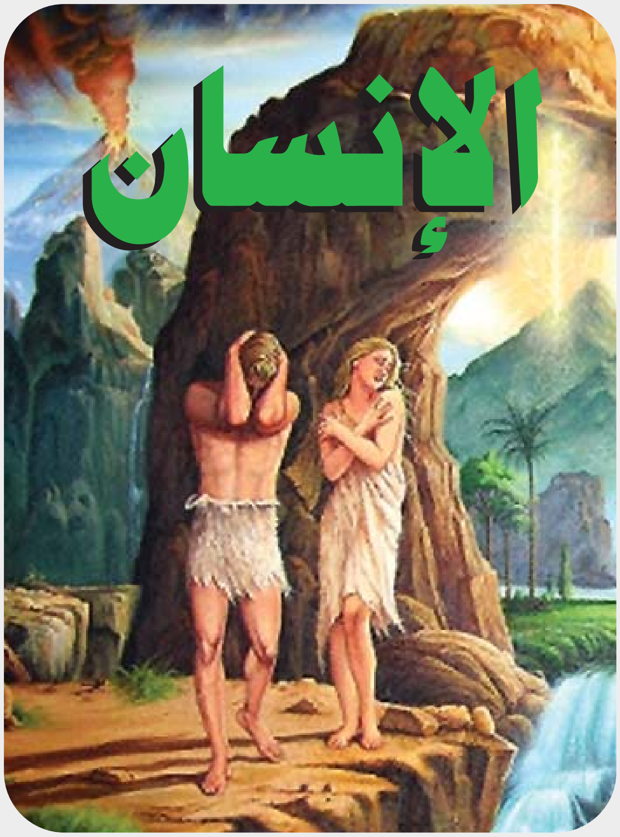

نرى، في الإصحاح الثّالث من سفر التّكوين، كيفيّة سقوط الإنسان في التّجربة والعصيان، عبر محادثته مع إبليس وإصغائه إليه. هذا العصيان أتى بنتائج وخيمة وعديدة على الإنسان، أوّلها الموت الرّوحيّ، والتّبكيت، والعذاب، والخطايا، وما يترتّب عليها كلّها من نتائج. ومن الأمور الّتي حصلت كذلك عند السّقوط، الانفصال الرّوحيّ والنّفسيّ عن اللّه، وحتّى المادّيّ (الجسديّ) أيضاً. نقرأ أنّ آدم وحوّاء قد اختبأا، "فاختَبأَ آدمُ وامرأتُهُ من وَجهِ الرَّبِّ الإلهِ في وَسَطِ شَجرِ الجنّة".

يا لهذا التّغيير المحزن في العلاقة بين الإنسان واللّه. لقد كان اللّه صديقًا، والآن صار عدوًّا للإنسان. هذا كلّه بسبب الخطيّة الّتي غيّرت موقف الإنسان القلبيّ من نحو اللّه، فصار يهرب منه ويتجنّبه ويعمل بإرشاد الجسد، بدلاً من أن يطلب وجهه ويسعى إلى الشّركة معه، والاستماع لصوته. يُفسِّر بولس الرّسول هذه الحالة قائلاً: "إذْ هُم مُظلِمو الفِكرِ، ومُتَجَنِّبونَ عن حياةِ اللّهِ لسَبَبِ الجهلِ الّذي فيهِم بسَبَبِ غلاظَةِ قُلوبِهِم".

هذا ما عمله كلٌّ من الخطيّة والشّيطان بآدم وحوّاء. فالوقت لم يَطُل حتّى ظهرت آثار التّجربة، وبدا المُجرِّب على حقيقته. لقد تركهما لمصيرهما المشؤوم ولحالة العار والخوف والدّمار، بعد أن وعدهما بأنّهما يكونان آمنين، بل يصيران كاللّه في القوّة والعظَمة والمعرفة (تكوين ٣: ٤-٥). إلاّ أنّهما كانا يعرفان أنّهما قد خسرا، ممّا جعلهما يخجلان ويخافان ويصغران ويختبئان.

لكن، أين يختبئان من وجه الرّبّ؟ هذا ضرب من ضروب الحماقة الّتي يرتكبها الإنسان إثر الخطيّة. سأل داود: "أينَ أذهَبُ مِن رُوحِكَ ومِن وَجهِكَ أينَ أهرُبُ؟". ويسألُ الرّبّ: "إذا اختَبأَ إنسانٌ في أماكِنَ مُستَتِرَةٍ أفما أراهُ أنا، يقولُ الرَّبُّ؟ أما أملأُ أنا السّماواتِ والأرضَ، يَقولُ الرَّبُّ؟" (إرميا ٢٣: ٢٤). ولماذا يختبئان من الوحيد القادر على شفائهما من لسعة الخطيّة؟

لكن، وبغضّ النّظر عمّا فعلاه ويفعلاه، لقد أتى الرّبّ الإله إليهما ماشيًا، وهما سمعا صوته ماشيًا نحوهما. ماذا نرى في هذه العبارة؟

kalima-10.qxd 11/25/2007 9:06 PM Page 18

إنّ اللّه يُبادر نحو الإنسان

هذا ما نستنتجه من العبارة: "سَمِعا صَوتَ الرَّبِّ الإلهِ ماشِيًا". فالكلمة "ماشيًا" تُشير إلى التّنَزّه، أو التّمشّي الّذي اعتاد اللّه أن يقوم به منذ البدء مع آدم وحوّاء، إذ أنّه كان معتادًا على زيارة خلائقه والتّكلّم معها كلّ يوم في أوّل العشيّة. أمّا الأمر غير المعتاد، فهو هروب آدم وحوّاء من خالقهما، الّذي وعد شعبه قائلاً: "إنّي سأسكُنُ فيهِم وأَسيرُ بَينَهُم، وأَكونُ لَهُم إلَهًا، وهُم يَكونونَ لي شَعبًا" (٢ كورنثوس ٦: ١٦). فالملاحظ أنّهما كانا يهربان من اللّه بسبب العصيان، أمّا هو فلا يُغيّر موقفه منهما. هما يهربان منه، وهو يأتي إليهما كالعادة ليكون في شركة معهما. لقد

كانت علاقة الرّبّ بهما علاقة متّسمة بكلّ مودّة ومحبّة ونعمة وهدوء. ومجيء اللّه إليهما ماشيًا كعادته، هو أمر ينبغي ألاّ يُخيفهما، إلاّ أنّهما خافا وابتعدا بسبب تبكيت الضّمير النّاجم عن الخطيّة، (الإسخريوطيّ ابتعد عن الرّبّ بسبب التّبكيت بدلاً من العودة إليه). فالخطيّة تُولّد الخوف في حياة الإنسان، بينما الرّبّ يأتي إليه بنعمته وطيبته المعهودتين، وهكذا، يكون اللّه هو الّذي يأتي إلى الإنسان وليس العكس. إنّ الضّمير لا يُعيد الإنسان إلى اللّه، بل يُبعده عنه لشدّة تعبه من الخطيئة. وهكذا، لا نجد بين البشر من يطلب اللّه، إذ الجميع أخطأوا (رومية ٣: ١١-١٢)، وفيما هم عاجزون عن اختيار المسيح بعد سقوطهم، يأتي هو، كونه الرّاعي الصّالح، ليطلب ويُخلّص ما قد هلَك (لوقا ١٩: ١٠). يقول الرّبّ في سفر التّثنية: "لأنَّ الرَّبَّ إلهَكَ سائرٌ في وَسَطِ مَحلَّتِكَ، لكي يُنقِذَكَ ويَدفَعَ أعداءَكَ أمامَكَ" (٢٣: ١٤).

إنّ اللّه يتكلّم مع الإنسان

يقول بعض المفسّرين لتكوين ٣: ٨، إنّ اللّه كان يتكلّم في أثناء سيره، وآدم وحوّاء قد سَمِعا صوته وليس صوت خطواته، "سَمِعا صَوتَ الرَّبِّ الإلهِ ماشِيًا". وهذا مُمكن، إذ فيما بعد نرى أنّ اللّه يتكلّم مع الإنسان شخصيًّا: "(آدم) أينَ أنتَ؟". إذًا، اللّه إله مُتكلِّم، لا يخفي نفسه عن الإنسان ولا يحجب وجهه عنه، بل إبليس هو مَنْ يُعمي الإنسان لئلاّ يرى اللّه (٢ كورنثوس ٤:٤). لكن، على الرّغم من هذا، يستمرّ المؤمن في سماع صوت اللّه آتيًا إليه، فمن غير المُمكن ألاّ يشعر الإنسان باللّه الّذي تسمعه حتّى الأرض عندما يتكلّم (إرميا ٢٢: ٢٩). وكيف يتكلّم اللّه مع الإنسان؟ إنّه يتكلّم معه بالطّريقة نفسها الّتي يأتي بها إليه، وليس من الضّروريّ أن يتكلّم بصوت رعدٍ وقصفٍ، كما تكلّم مع أيّوب وسط العاصفة. فعلى الرّغم من خطيّة آدم وحوّاء، لم يأتِ الربّ إليهما بغضبٍ مُشتَعِلٍ وبشفتين ممتلئتين سخطاً، أو بنارٍ آكلة. ويربط علماء النّصّ بين طريقة مشي الرّبّ وبين كلامه عند هبوب ريح النّهار، وليس في أثناء الحرّ، ليؤكّدوا أنّ اللّه كلّمهما بنعمة وكأنّه يقول لهما: "ليسَ لي غيظٌ". فاللّه "بَطيء الغَضَب وطَويلُ الرّوح"، ويتعامل مع بنيه كأب حنون، يفهم ظروفهم ويأسف لسقوطهم ويأتي لنجدتهم. ويُرينا هذا النّصّ أنّ الإنسان، عندما يُخطئ، يعرف أنّه قد أخطأ في داخله، ولا يحتاج إلى التّعنيف ليعرف سوء ما عمل، إذ يتكلّم اللّه إليه بصوت هادئ، يخاطب ضميره ويخرق قلبه، كما حصل آنذاك في الجنّة أو لإيليّا عندما خاطبه اللّه "بصوتٍ مُنخفضٍ

kalima-10.qxd 11/25/2007 9:06 PM Page 19

خفيف". إنّ هذا الصّوت الإلهيّ ما زال يُسمَع في شهادة الضّمائر ضدّ النّاس في كلّ مرّة يُخطئون، "شاهِدًا أيضًا ضميرُهُم وأفكارُهُم فيما بَينَها مُشتَكيَةً أو مُحتَجَّةً" (رومية ٢: ١٥). المهمّ أن يصدق النّاس مع أنفسهم عندما يسمعون هذا الصّوت، ويتجاوبون مع مبادرة الرّبّ نحوهم.

إنّ اللّه يأتي ليُخبِر الإنسان بالمخلّص

ها اللّه يبحث عن آدم ليُظهر له فداحة خطيّته، ويقول لحوّاء: "ما هذا الذّي فَعَلتِ؟" (تكوين ٣: ١٣). إلاّ أنّ الزّيارة الإلهيّة لم تكن للمحاسبة فقط، وإلاّ كانت زيارة دينونة وعقاب لا تُنبئ بخبر سارّ لإنسان متألّم ممّا عمله ويحتاج إلى مَن يُخرجه من ورطته. ونرى أنّ اللّه بادَرَ نحو أبوَينا الأوّلَين لا ليدينهما، بل ليُخبرهما أنّ مخلّصًا سيأتي من أجلهما ويفتح لهما الطّريق للعودة. وفي تكوين ٣: ١٥ يَعِد اللّه الإنسان بمجيء المُخلّص من "نسل المرأة" الذّي يسحق رأس الشّيطان ويُخلّص البشر. يُعرِّف اللاهوتيّون هذا الوعد "بالإنجيل المُسبَق" (الإنجيل السّابق لبشارة الإنجيل في العهد الجديد)، أو "protoevangelium" في اليونانيّة، وقد صار هذا الوعد الخبر السّارّ الذّي جاء اللّه ليُعطيه للخطاة المحتاجين إلى مَن يُنقذهم من خطاياهم. ويُسأل: من هو نسل المرأة؟ إنّه المسيح الذّي تكلّم اللّه عليه لإبراهيم. يوضّح بولس الرّسول هذه الحقيقة بقوله: "لا يقولُ: وفي الأنسال كأنّهُ عن كثيرينَ، بَلْ كأنّهُ عن واحدٍ: وفي نَسلِكَ (إبراهيم الذّي تجدّد الوعد له) الذّي هو المسيح" (غلاطية ٣: ١٦). لقد جاء اللّه شخصيًّا ليُخبر آدم وحوّاء عمَّن يُولَد من امرأة ليفدي الذّين هم تحت حكم الموت بسبب الخطيّة (غلاطية ٤: ٥). ما أعذب هذا الوعد أنّ يسوع يُخلّص النّسل البشريّ من سلطان الخطيّة والشّرّير! إنّه أعظم ما تكلّم به اللّه شخصيّاً للبشر في تاريخ علاقتهما معاً.

ونرى في سفر التّكوين، حيث ظهر اللّه مُخلّصًا لأوّل مرّة، أنّه صنع لآدم وامرأته "أقمِصَةً من جِلدٍ وألبَسهُما" (تكوين ٣: ٢١). ويعتبر المفسرّون أنّ هذه أوّل صورة لذبيحة المسيح، الذّي بسفك دماه تبرّرنا، وقُبلنا، وستُرت خطايانا، إذ بدون سفك دم لا تحصل مغفرة خطايا (عبرانيّين ٩: ٢٢). ويرى المفسّرون أيضًا أنّ في الأقمصة الجلديّة الّتي ألبسهما إيّاها اللّه إشارة علنيّة إلى التّبرير والكرامة اللّذَين يُعطيهما اللّه لأولاده عند قبولهم تدبيره الخلاصيّ. نرى هذه الصّورة بالحلّة الأولى الّتي ألبسها الأب الرّحوم لابنه العائد. وهكذا، نرى أنّ ما عمله آدم ليكسوَ نفسه (أوراق التّين الّتي خاطها ولبسها)، لم يكن مقبولاً من اللّه. فالخلاص من صنع اللّه وليس الإنسان، وما على الإنسان إلاّ أن يقبل الخلاص المُقدَّم له من اللّه بالإيمان، كما يقول بولس: "لأنَّكم بالنِّعمةِ مُخلَّصون، بالإيمان، وذلكَ ليسَ منكُم. هو عطيّةُ اللّهِ. لَيسَ من أعمالٍ كي لا يَفتَخِر أحَدٌ" (أفسس ٢: ٨-٩). لقد جاء اللّه ليقول للإنسان الأوّل، وعبره لكلّ نسله: أنتَ أخطأت، وخطيّتكَ أبعدَتكَ عنّي، ولا يُمكنكَ أن تَصنَع خلاصَكَ بيدِك، الخلاص أنا أصنعه لك، وأنت تقبله منّي بالإيمان. يتردّد صدى كلام الرّبّ لآدم عبر جميع الأجيال، وذلك عبر الأنبياء في العهد القديم والرّسل في العهد الجديد، الذّين شهدوا للمسيح أنّه ليسَ بأحَدٍ غيره الخلاص (أعمال ٤: ١٢)، وأنّ كلّ من يؤمِن به يَنالُ باسمِهِ غُفرانَ الخطايا (أعمال ١٠: ٤٣). إنّ هذا النّصّ الإلهيّ

kalima-10.qxd 11/25/2007 9:06 PM Page 20

يُرينا عملاً إلهيًّا رحومًا جدًّا، فيه عرض واحد مُثبَّت لا يُستبدل ولا يتغيّر، ألا وهو أنّ الخلاص من الخطيّة يصنعه اللّه في المسيح وحده؛ فإن قَبِل الإنسان هذا العرض الإلهيّ، ألبَسَه اللّه بيدَيه رداء الكفّارة، كما حصل مع آدم، وأعاده إلى الشّركة المُعزِّيَة مع خالقه. عرف إشعياء النّبيّ هذا الخلاص، وفرح بتبرير اللّه له، ورنّم قائلاً: "فَرَحًا أَفرَحُ بالرَّبِّ. تَبتَهِجُ نَفسي بإلهي، لأنّهُ قَد أَلبَسَني ثِيابَ الخلاصِ. كَساني رِداءَ البِرِّ، مِثلَ عَريسٍ يَتَزَيَّنُ بِعَمامَةٍ، ومِثلَ عَروسٍ تَتَزَيَّنُ بِحُلِيِّها" (إشعياء ٦١: ١٠). هذا هو نصيب كلّ مَن يَقبَل إعلان اللّه الخلاصيّ بالمسيح.

لا بدّ من الوقوف عند هويّة الأقنوم الإلهيّ الّذي ظهَر لأبوَينا الأوّلين، عندما نقرأ "وسَمِعا صَوتَ الرَّبِّ الإلهِ ماشِيًا في الجنّةِ عندَ هُبوبِ ريحِ النَّهارِ، فاختَبأَ آدَمُ وامرأتُهُ مِنْ وجهِ الرَّبِّ الإلهِ في وَسَطِ شَجَرِ الجنَّةِ". لقد عرف كلٌّ من آدم وحوّاء أنّ اللّه أتاهما بشكل "رجل" يمشي، لم يكنْ إلاّ الابن في أوّل ظهوراته قبل التّجسّد. ومَنْ يدرس الإعلانات والظّهورات الإلهيّة (*Theophanies of God*)، الّتي صارت لرجال اللّه في العهد القديم، يعرف أنّ الأقنوم الثّاني هو الّذي يُعلِن اللّه للبشر دائمًا. إذًا، هذا "الرّجل" هو الّذي أعلنَ الخلاص، وهو الّذي تَمّمه فيما بعد، وهو الّذي يأتي قاضيًا مُعيَّنًا من الثّالوث القدّوس لديْنونة البشر في حال عدم قبولهم خلاصه. يقول بولس الرّسول: "فاللّهُ الآنَ يأمُرُ جَميعَ النّاسِ في كُلِّ مكانٍ أن يَتوبوا، مُتَغاضيًا عن أَزمِنَةِ الجهل. لأنّهُ أَقامَ يومًا هوَ فيهِ مُزمِعٌ أن يَدينَ المسكونَةَ بالعَدل، برَجُلٍ قد عيَّنهُ، مُقدِّمًا للجَميعِ إيمانًا إذ أقامهُ مِنَ الأمواتِ" (أعمال ١٧: ٣٠-٣١).

ونرى أيضًا أنّ اللّه لم يأتهما بغتةً، بل أعطاهما فرصة ليستعدّا لقدومه إذ: "سَمِعا صَوتَ الرَّبِّ الإلهِ ماشِيًا" من بعيد. ويذكر الوحي أنّ اللّه كان يُنادي آدم: "أينَ أنتَ؟" وذلك ليس لأنّه يجهل مكانه، بل ليوقظ ضميره بخصوص ما فعل، وليعرف الواقع الجديد الّذي هو فيه، وليستعدّ للقاء خالقه.

يشرح بطرس الرّسول هذه الخطّة الخلاصيّة، فيقول إنّ اللّه يتأنّى على النّاس، وهو إن تَمهَّلَ، فلكونه لا "يَشاءُ أن يَهلِكَ أُناسٌ، بَلْ أنْ يُقبِلَ الجميعُ إلى التّوبةِ" (٢ بطرس ٣: ٩). اللّه يُعطي فرصة كافية لجميع النّاس ليَخلُصوا، فهو "يُريد أنّ جَميعَ النّاس يَخلُصون وإلى مَعرِفَةِ الحقِّ يُقبِلون" (١ تيموثاوس ٢: ٤). والخلاص الّذي حصل لأبوَينا الأوّلين يومها، قد يتكرّر مع كلّ إنسان يقبل يَمين الخلاص الّتي مدّها المسيح في الصّليب، ليهب الخلاص والحياة الأبديّة. وما مجيء المسيح بالجسد، وصيرورته بالهيئة كإنسان، من نسل المرأة، إلاّ ليؤكّد للنّاس أنّه يُريد أن يُخلِّصهم بدمه (فيلبّي ٢: ٧-٨)، ويستردّهم للشّركة الدّائمة والأبديّة معه. يثبّت الكتاب المقدّس أنّ الخلاص الّذي عمله اللّه الابن لم يكن خلاصًا مؤقّتًا، بل خلاصًا كاملاً لحياة وشركة أبديَّتَين معه (عبرانيّين ٧: ٢٥؛ ١بطرس ١: ٥). يذكر يوحنّا الرّائي هذه الحياة الأبديّة مع اللّه قائلاً: "وسَمِعتُ صَوتًا عَظيمًا مِنَ السَّماءِ قائلاً: هوَذا مَسكَنُ اللّهِ معَ النّاس، وهوَ سَيَسكُنُ مَعَهم، وهُم يكونونَ لهُ شَعبًا، واللّهُ نفسُهُ يكونُ مَعَهُم إلهًا لَهُم" (رؤيا ٢١: ٣). ما أعظم رحمة هذا "الرّجل" على جميع البشر! فهو، بدلاً من إدانتهم يأتي ليُخلِّصَهم، وبدلاً من مُعاملتهم بحسب خطاياهم، يتعامل معهم بنعمته. ويبقى السّؤال رهن كلّ ضمير: هل تقبل المسيح بالإيمان مُخلِّصًا شخصيًّا لك؟

تُنشد الكنيسة الإنجيليّة ترنيمة جميلة لهذا المُخلّص الإلهيّ:

اسْمَعوا بُشرى الظَّفَر   بِيَسوعَ الخَلاص
انْشُروها للبَشَر   بِيَسوعَ الخَلاص

بَشِّروا شَتَّى البِلاد   في الجِبالِ والوِهادُ
عَلِّموا كلَّ العِباد   بِيَسوعَ الخَلاص